«وصف الإسكندرية» بالبلجيكي

د. مصطفى عبدالرازق

هذا الكتاب يمثل إنجازًا يجب أن يحسب لمكتبة الإسكندرية، فضلا عما يمثله من خدمة رائعة من المكتبة للمدينة التى تقدم خدماتها لقرائها من على أرضها. الكتاب الذى مر صدوره فى صمت رغم تنظيم المكتبة معرضًا بأهم محتوياته، هو «وصف الإسكندرية». وقد كان يمكن له أن يظل فى طوايا النسيان لولا جهود النبش التى يقوم عليها القائمون على المكتبة وعلى رأسهم الدكتور خالد عزب مدير إدارة المشروعات الذى حظى بالتدر من قبل الفقى على مساعيه للكشف عن كل خبايا المدينة، والبحث عن كل ما هو قيم وجدير بالتقديم للقارئ والقيام على أعباء إصداره.

الكتاب الذى أصدرته المكتبة فى نحو 182 صفحة من القطع المتوسط فى حلة أنيقة ورشيقة عبارة عن مخطوط رسمه بحارة غير معروف الأصل يدعى برتناشامب كان ينتمى إلى الأقاليم الجنوبية من مملكة بلجيكا الناطقة بالفرنسية حيث كان فى مهمة أوكلت إليه من ملك فرنسا فى سنة 1740 لدراسة الشرق وتحديد المسار إلى مصر تمهيدا لتنفيذ مشروع الغزو والتوسع الاستعمارى الذى قام به فيما بعد نابليون عام 1798.

وحسبما يشير الدكتور مصطفى الفقى فى معرض تقديمه للكتاب فإن الفنان المذكور قدم مجموعة كبيرة من اللوحات عن المدن التى زارها فى هذه الرحلة ومنها مالطا والإسكندرية ورشيد والقاهرة ومدن الجنوب الإيطالى فى جزيرة صقلية وغيرها تم الاختيار من بينها ما يخص مدينة الإسكندرية حاضرة العالم القديم.

وكان المخطوط أهدى من ملك بلجيكا البرت الأول إلى الملك فؤاد الأول عند زيارته لمدينة الإسكندرية سنة 1930 فى زيارة رسمية لمصر زار خلالها كافة معالم المدينة الأثرية المكتشفة فى ذلك الوقت، وقد حفظ هذا المخطوط فى مكتبة الملك فؤاد ومنها إلى مكتبة الملك فاروق ومنها بعد ثورة يوليو إلى مكتبة وزارة الإرشاد القومى التى تحولت إلى وزارة الإعلام فيما بعد.

وقد ظل المخطوط محفوظًا بعناية إلى أن أهدى لمكتبة الإسكندرية عام 2008 لإثراء مقتنيات المكتبة العلمية وإنعاش ذاكرة المصريين التاريخية. وقد جسدت اللوحات التى رسمها برتناشامب ضمن الكتاب بصورة دقيقة الواقع المرير الذى ألم بالمدينة وقت زيارته لها حيث نقل من خلالها بحرفية عالية كل ما شاهده وأحس به من مؤثرات قام بربطها فى صورة متكاملة خرجت إلينا فى أبهى صورة. ومن بين اللوحات مثلا التى يتضمنها الكتاب بقايا أو أنقاض قصر كليوباترا، المسجد الكبير (جامع العطارين)، حصن الفنار الكبير (قلعة قايتباى).

ودلالة المواد التى جاءت فى الكتاب حسبما يشير الباحث حسام عبد الباسط أن فيه ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن عمران مدينة الإسكندرية فى عصرها الإسلامى وتحديدا فى أواخر العصر العثمانى، حيث يزودنا بصورة واضحة لحالة المنشآت الأثرية فى مختلف العصور الإسلامية وأوضاعها فى تلك الحقبة قبل اندثارها بشكل أو بآخر قبل قدوم الحملة الفرنسية على مصر بثمانية وخمسين عاما. ويضم الكتاب ستًا وستين لوحة مرسومة بالحبر الشينى ومكتوب عليه اسم صاحبه.

وإذا كان من نتائج يكشف عنها هذا الكتاب، فهى أنه فضلا عن تأكيده على الاعتماد، من قبل الغرب، على استخدام أساليب البحث العلمية والتحليل للظواهر المعمارية والتاريخية فإنه يشير كذلك إلى أن رحلات الرحالة الغربيين كانت تتم لأغراض مختلفة منها غرض التجسس حيث كانت رحلة برتناشامب تخدم أهداف فرنسا بشكل كبير إلى جانب هدفها العلمى البحت، حيث يمكن التأكيد على وجود صلة ما بين اللوحات التى رسمها الفنان صاحب اللوحات وتحقيق الأهداف والمصالح الفرنسية.

وفى النهاية فإن الاهتمام بهذه الأعمال إنما يحقق العديد من الأهداف على رأسها تحديد ملامح الأوضاع فى مصر، وفى الإسكندرية موضع اللوحات، خلال فترة رسمها، فضلا عن الاستفادة من إسهامات هذه الأعمال فى إثراء معرفتنا بفترة حيوية من تاريخنا .. الأمر الذى لم يكن ليتاح لنا كجمهور عام متابعته لولا الجهد المتميز للقائمين على مكتبة الإسكندرية.

Mostafa1962@yahoo.com